قصة قصيرة

نجوم الظهيرة

مصطفى زيات

حين كان ـ بعد طلوع الفجر بقليل ـ يمشي بتمهل بين الأشجار عائداً من النهر وفي يده قطعة صابون وفي الأخرى منشفة قطنية ملونة يمسح بها رأسه وعنقه والجزء الأعلى من ظهره وصدره، كانت ـ في الوقت ذاته ـ تمسح وجهها بقليل من ماء صنبور البرميل الصغير المرفوع على كرسي خشبي قديم في الجانب الأيمن لباب الغرفة قريباً من ساق دالية ضخمة تغطي عريشتها قسماً كبيراً من سماء باحة الدار. ثم قعدت ـ بعد أن مسحت كفيها بجانبي ثوبها ـ على طرف المصطبة الإسمنتية الطويلة الممتدة تحت شباكي الغرفتين تحت العريشة المفروشة بقطعة من بساط ملون قديم، وتناولت ـ من حافة شباك غرفتها المفتوح الذي يتسرب منه نور المصباح الكهربائي الضعيف ـ مرآة صغيرة مستطيلة الشكل ومشطاً أبيض مربعاً صغيراً مسنن الطرفين وراحت تسرح به شعرها الأسود الطويل وتجمعه خلف أذنيها، ثم أعادت المرآة والمشط إلى مكانهما بجانب ثياب زوجها والتقطت منديلاً مزهراً صغيراً ولفَّت به ـ بعد أن نفضته عدة مرات ـ رأسها وربطت طرفيه تحت شعرها، ثم نهضت ونفضت أذيال ثوبها وشدَّت جوانبه وسوَّتها وانتصبت وتوجهت بهدوء نحو باب الدار المفتوح تحت أغصان شجرة التوت العظيمة تراقب زوجها الذي يجتاز ـ الآن ـ سكة القطار وقد لفَّ المنشفة حول عنقه وأدخل طرفيها تحت قميصه القطني الأبيض، وخلفه تموج أغصان أشجار بستانه وفوق رأسه ـ في صفحة السماء ـ ترفُّ نجمة الصبح وقد خبا ضوؤها وارتعش بعد أن أنهكه ضياء الصباح الذي يقترب.

رفع رأسه ـ وقد اقترب ـ إلى الأعلى قليلاً ودفع صدره إلى الأمام وراح ـ وهو يغمض عينيه ويفتحهما ببطء ـ يستنشق بعمق النسيم العذب الندي الذي كان يداعب وجهيهما وأذنيهما ويحمل إليهما ـ من بعيد ـ خرير المياه المتناغم مع حفيف الأشجار تُقطِّعه ـ بإيقاع ـ أصداء فرقعات محركات الضخّ على ضفتي النهر ويوشِّيه هديل الحمامتين في الكوة الصغيرة قرب السطح وترصِّعه زقزقات العصافير الحادة المتصلة وقد اشتدت حركتها وتسارعت حتى لا تكاد تستقر على أغصان شجرة التوت العظيمة.

تناولت بكفها قطعة الصابون، ثم ناولها ـ بعد أن مسح كفيه ـ المنشفة وتوجها نحو المصطبة حيث قعد على طرفها أمام شباك غرفة أمه وأولاده المغلق ثم تناول ثيابه من على حافة الشباك المفتوح ووضعها إلى جانبه، بينه وبين زوجته، وراح يرتدي جوربه بعد أن رفع قدميه إلى حافة المصطبة ونفض ما علق بهما من تراب بخرقة كانت ـ في يوم ما ـ قميصاً داخلياً، بينما شغلت زوجته نفسها بتفقد أشياء زوجها الخاصة المكوَّمة في حضنها: كيس النقود، ساعة اليد، علبة التبغ، القداحة القديمة، المسبحة، البطاقة الشخصية، وبضع قطع كرتونية من علب أدوية، ثم راحت تراقب زوجها وهو يقلِّب سرواله وصدرته ويتفحصهما ثم يرتديهما من غير أن ينهض، وحين انتهى من ارتدائهما قالت ـ قاطعة الصمت الذي طال ـ من خلال ابتسامة هادئة ذات مغزى:

ـ لا تنس حاجات امرأة عمي.

نظر إليها ـ وقد زمَّ شفتيه قليلاً ـ بابتسامة ذات مغزى أيضاً، فكبرت ابتسامتها، وخاطبها ـ في سره ـ وقد علق بصره بغمازتي خديها الرائعتين: «الله درك، ما أجمل مجاملتك! وهل يعقل ـ يا غالية ـ أن أنسى حاجات أمي؟... ألست تعرفين!؟. أتعرفين، لقد أرجعتني

ابتسامتك هذه خمسة عشر عاماً... إلى يوم زواجنا...».

وأحسَّ برغبة جامحة في تقبيل مبسمها حيث امتدت أنامله، فأمسكت يده برقة ومسحت كفَّه بخدها الناعم فمد يده الأخرى وأخذ وجهها الخمري بين كفيه الكبيرتين الخشنتين وراح يتملاه بشوق، فوضعت يديها برفق فوق يديه وأشارت بطرف عينها نحو الشباك المغلق، ثم أغمضت عينيها الواسعتين وراحت - وهي ماتزال تبتسم - تتنفس بعمق.

ودَّ لو يستطيع الذهاب بسرعة ليتمكن من العودة سريعاً.

قالا - بعد فترة صمت، وفي وقت واحد - :

- لا تتأخر...

- لن أتأخر....

وصمتا معاً.

ثم تابع بصوت هادىء خفيض جادّ:

- .... لن أُذكِّرك... لا سباحة اليوم... ولا أرجحة.

أجابته مطمئِنة:

- لا تقلق... سنذهب، أنا وامرأة عمي والأولاد، إلى بيت أهلي.... وسيلعب الأولاد مع خالهم وخالتهم وسيفرحون بخالتهم كثيراً...

تابعت، وقد عادت إليها ابتسامتها الساحرة:

... أليست عروساً... أعتقد أنها ستكون - وهم يتأملون أغراضها - أكثر فرحاً منهم... وسنبقى هناك حتى عودتك.

فأجابها، وقد حسم أمره:

- لن أنتظر قطار المساء. سأعود بالسيارة.

* * *

راح - وهو في طريقه حاملاً سلته الصغيرة - يعدِّد - في سره - الأشياء التي سيجلبها من المدينة مبتدئاً بصنادل الأطفال وجلاليبهم، فهي هدية نجاحهم في المدرسة، ثم أدوية أمه، وخاصة، قطرة العين التي لا تستطيع الاستغناء عنها، صباح مساء، وقبل يومين بدأت باستعمال الزجاجة الأخيرة، ثم لوازم الصيد؛ صحيح أنه لم يذهب للصيد منذ زمن بعيد، حتى بات يشك في صلاحية بارودته القديمة، لكن داره لم تخل يوماً من لوازم الصيد، فقد يطلبها أحد الشباب، ولا يليق أن لا يجدها عند شيخ الصيادين، فلا بد إذاً من شراء كمية من البارود والخردق وعلبة أو علبتين من (كبسولات) الصواعق، على كل حال، فهو سيحتاجها يوم العرس. أليس هو الأخ الأكبر للعريس الذي وافقت - قبل شهر - قيادة الجيش على زواجه؟

ثم تذكر وهو يبتسم ما طلبته زوجته التي شعرت، بعد حصولها - كأمه - على الرداء والحذاء، والوشاح والزنار المطرزين بخيوط الفضة، شعرت بأن أغطية الوسائد والمفارش والستائر أصبحت بالية ولا مفر من تغييرها، وتذكر - وقد كبرت ابتسامته - كيف راوغ - على الرغم من فرحه واقتناعه التام بالفكرة - وحاول المماطلة، وكيف أنها قابلت مراوغته - على غير عادتها - بإلحاح وإصرار عنيدين، فزاد ذلك من فرحه وسروره، ثم تذكر كيف تظاهر - كمن غلب على أمره - بالانصياع والموافقة ملمّحاً بأنه ما عاد أحد يستطيع أن يتغلب عليها، وتمنى لو يستطيع شراء سوار ذهبي لزوجته، كالذي حصلت عليه العروس، فمازال يتذكر ما بذلته من جهد في سبيل إخفاء إعجابها به، وعاهد نفسه على تنفيذ ذلك في أقرب فرصة.

أما حيرته فيما سيشتريه لنفسه - على الرغم من قراره شراء شيء واحد فقط - فلم تنته بعد، فهو مايزال متردداً في المفاضلة بين الحذاء والصندل. إنه يملك كليهما، وكلاهما قديم، وهو لا يرغب في شراء الاثنين دفعة واحدة، لكنه - الآن - يفضل الصندل، فالصيف أمامه طويل، ولن يحتاج للحذاء قبل حلول الشتاء.

لم يكن - وهو يتابع طريقه - مرتاح البال فحسب، بل كان سعيداً، كما كان يشعر بنشاط كبير.

* * *

وضع سلة المشمش الصغيرة بين قدميه واستند بظهره إلى ساق شجرة عظيمة منعزلة قريباً من موقف القطار ونظر في ساعة يده ثم أخرج علبة تبغه وراح - وهو يصنع لفافته بتمهل - يرتب - في ذهنه - أعمال يومه. وأول أعماله

سيكون ـ كعادته دائماً ـ زيارة ابن عمه الذي يعمل أجيراً في مطعم كبير حيث سيتناول ـ كعادته أيضاً ـ طعام الفطور وسيتخلص من سلة المشمش، ولكنه ـ على غير عادته ـ يشعر في هذه المرة بقلق غريب من لقاء ابن عمه، فكل لقاءاتهما كانت مبعث سرور وسعادة لكليهما، وعلى الرغم من جدالهما فقد كان حوارهما ينتهي ـ دائماً ـ بعبارة محددة يقولانها معاً ضاحكين: «سأفكر في الموضوع»، وكلاهما يعرف ـ معرفة تامة ـ أن الموضوع سينسى حتى لقاء قادم، غير أنه صار يفكر في الموضوع فعلاً، بل صار الموضوع هاجساً ووسواساً يقاومهما بصعوبة ويخشى أن تنتهي حالة التردد والحيرة التي يعيشها منذ اللقاء الأخير إلى الرضوخ، وهذا الخاطر ـ الرضوخ ـ هو ما يقلقه.

صحيح أن الكثيرين من أبناء قريته حوَّلوا بساتينهم أو أجزاء منها إلى مقاه ومطاعم و. . . ، وأصبحوا من متعهدي مختلف أنواع الحفلات، والعشاءات الساهرة. ولكن ذلك ـ على الرغم من إلحاح ابن عمه وآخرين ـ لم يكن ليقنعه. وصحيح أيضاً أنه ـ وأبوه من قبله ـ يستقبل في بستانه ـ وبكل ترحاب ـ المتنزهين الذين يبكرون ـ مع زوجاتهم وأولادهم وسلالهم وأكياسهم وعلبهم وصررهم و. . ـ ليتمكنوا من الحصول ـ وخاصة أيام العطل والحر الشديد ـ على واحدة من مصاطبه الإسمنتية القليلة المنتشرة على ضفة النهر تحت أشجار الصفصاف حيث يمضون سحابة نهارهم في صنع الطعام وأكله وشرب الشاي على أنغام المذاييع وآلات التسجيل وصرخات الأطفال وبكائهم، وقد طغى كل ذلك على خرير المياه وحفيف الأشجار وزقزقات العصافير، ثم ارتشاف القهوة ـ إن وجدت ـ قبيل الغروب، وبعدها انتظار قطار المساء.

لا. ليس صحيحاً أن العلاقات بينه وبين المتنزهين وبين عائلته وعائلاتهم كالعلاقة بين صاحب مقهى أو مطعم أو (. . . . .) وبين رواده، فكثير من هذه العلاقات ـ وبعضها قديم منذ أيام أبيه ـ تحوَّل إلى صداقة وموده كبيرتين، وهو مايزال يذكر يوم عرض غرفته على عائلة فاتها القطار وأراد أن ينام مع عائلته على الطرف الآخر من السطح، ولكن عرضه رفض بإصرار، ثم حُلَّت المشكلة بأن باتت النساء في غرفته، مع زوجته وأمه، وبات الرجال معه على الطرف الآخر من السطح، وبات الأولاد جميعاً في غرفة الجدة، لكن الجميع، نساء ورجالاً وأولاداً، لم يناموا في تلك الليلة، كما كاد يفوتهم قطار المساء في اليوم التالي.

«صحيح أنه ليس غنياً، ولكنه لا يشعر ـ كما يدعي ابن عمه ـ أنه فقير، حتى وإن كان فقيراً فهو لن يبيع ـ مع أشياء كثيرة أخرى ـ نسيم بستانه وظل أشجاره».

وابتسم حين خطر بباله أنه ـ بلا ريب ـ سينهي حوار اليوم بـ «سأفكر في الموضوع» وعادت إلى نفسه راحتها وإلى وجهه إشراقته التي فارقته للحظات، ونظر في ساعة يده ثم أشعل سيجارته وراح يتابع ترتيب أعماله فقفزت إلى ذهنه علبة الحلوى.

وكي لا يتكرر ما حدث معه في آخر زيارة للمدينة ـ قبل خمسة شهور ـ عندما اشترى لحظة وصوله علبة الحلوى التي أربكته وهو يحملها ـ تحت المطر ـ من سوق إلى سوق ومن دكان إلى دكان، حتى فكر ـ أكثر من مرة ـ في التخلص منها، ولكنه ـ أخيراً ـ لفَّها بمنديله الكبير وحملها برؤوس أصابعه بعيداً عن ثيابه، لذلك ستكون علبة الحلوى ـ في هذه المرة ـ آخر ما يشتريه، فما أكثر بائعي الحلوى حول مركز انطلاق السيارات.

حين وصله من بعيد صوت القطار نظر في ساعة يده فشعر بأن الحظ يحالفه هذا الصباح، ولو سارت الأمور هكذا فسينهي كل أعماله قبل انتصاف النهار.

* * *

قبيل الظهيرة، وعند منعطف شارع رئيسي، وتحت عمود نور، كانت جثته ملقاة على وجهها فوق أرض مفروشة بنجوم ـ لا تحصى ـ صنعتها قطع صغيرة لامعة تحت أشعة الشمس من زجاج واجهات المحلات التجارية التي حطمها انفجار السيارة الملغومة، تلك التي مايزال قليل من الدخان الأسود يتصاعد ببطء من هيكلها المحترق، وتحت الجثة كيس مملوء بصنادل الأطفال، وقد لُفَّ رأسها ـ كما الجثث المختلفة المبعثرة حولها ـ بأوراق جرائد الصباح.

حلب